عرفت هؤلاء

بقلم : أنور السادات

كان خروشوف يكره زكريا محيي الدين . فقد كان يشغل منصب وزير الداخلية ، وكان المسئول عن مطاردة الشيوعيين المصريين ، والقبض عليهم ، ورصد تحركاتهم ، كما كان يتهمه بأنه « امريكانى »!

ولم يحاول خروشوف ان يخفى كراهيته لزكريا . فأسماه بيريا المصرى ! ونصحنا بالتخلص منه بان نعقد اجتماعا طارئا لمجلس قيادة الثورة ، ثم نشترك جميعا فى الاطباق على رقبة زكريا ، ولا نتركها الا بعد موته . وهى نفس الطريقة التى قام بها قادة الاتحاد السوفيتى للتخلص من بيريا !

٣ خروشوف الذى لا ينسى أحقاده!

لم تهمل مصر زيارة خروشوف . بل على العكس من ذلك كان الاهتمام بتلك الزيارة يفوق الوصف . وكان البرنامج الذى أعد لتلك الزيارة ، حافلا ، ومثيرا ، لم يكن خروشوف يتوقعه او ينتظره .

وعدنا الى القاهرة ، بعد انتهاء احتفالات السد العالى فى أسوان . وكان فى انتظار خروشوف ، فى العاصمة المصرية ، الكثير من الفلاحات التى اسعدته ، وشجعته على أن يكون مندفعا الى درجة غير مقبولة من أحد!

فمثلا وجهنا الدعوة لحضور احدى جلسات مجلس الامة . وقلنا كانت رئيسا للمجلس . وجلس خروشوف على يمينى ، وجلس عبد الناصر على شمالى . وقام عبد الناصر بنزل من المنصة ، ووقف أمام المنبر والقى كلمة ترحيب لخروشوف ، ثم ترك مكانه للضيف السوفيتى ليوجه كلمة لأعضاء مجلس الامة الذين احسنوا استقباله ، وصفقوا له طويلا .

وبعد انتهاء الجلسة ، دخلنا جميعا الى الغرفة الملحقة والمخصصة لرئيس الجمهورية . وكان الجو النفسى مشجعا للتخلص من الرسميات ، ومواصلة الحديث كاصدقاء . وحاولت ان أبدأ من جانبى لكسر الجليد الذى اقامه خروشوف بينه وبينى من خلال الفاظه البذيئة التى امطرنا بها خلال الايام القليلة التى امضاها معنا فى أسوان .

وجهت حديثى لخروشوف ، وكان معه جريشنكو ـ وزير الدفاع السوفيتى ، وقلت له ضاحكا :

ـ « لقد قررت ان اقبض على جريشنكو ، والابقاء عليه رهينة هنا فى مصر ، ولن افرج عنه الا اذا وافقتم على تزويدنا بما طلبناه من اسلحتكم! »

وضحكت . وضحك جميع من كان معنا فى الصالون . الوحيد الذى لم يضحك كان خروشوف! لم يفهم الفكاهة! أو لعله فهمها ، ولكنه لم يقبلها! وفوجئت بوجهه يصفر ، ورسم فوقه ابتسامة باهتة ، وتوقعت ان ينهال على بقذائفه اللفوية الخارجة ، من نفس القاموس الذى استخرج منه الشتائم التى أهان بها عبد السلام عارف! وكان من المؤكد ان خروشوف كان يتمنى أن يرد على تعبيرى اضطر الى خنق رغبته ، فلم يرد ، واحتقن وجهه وتجسمت فيه كل ملامح الرجل الحاقد ، الذى لا يقيم أى وزن لأى انسان!

ولحسن الحظ ان جريشنكو كان يضحك ، سعيدا بالتعبير الذى استخدمته . وجريشنكو يقبل على الخمر ، ويحب « الهزار » ، وكثيرا ما دار بينى وبينه الحديث الضاحك ، المرح ، كما يحدث دائما مع الاصدقاء . وهذا هو شأن معظم الشعب السوفيتى ، وهم هناك يشاركون الشعب المصرى فى حبه للنكتة ، ولعه بالفكاهة . خروشوف هو وحده الذى كان يضحك فقط لما يقوله هو ، حتى ولو اغضب الجميع بكلماته وشتائمه!

النظرة الحاقدة ، فوق الوجه الاصفر غلا وضيقا ، جعلتنى اقرر الابتعاد تماما عن خروشوف . فلا الرجل يريد ان يفتح قلبه لى ، ولا انا اسعى الى كسب صداقته! لقد صدمنا جميعا فى خروشوف عندما رأيناه ينسى نفسه ، وينهال بالشتائم على الرئيس العراقى عبد السلام عارف ، بلا مناسبة . ولم يكن عارف ضحيته الوحيدة ، فقد حدث أن ذهب خروشوف الى حفل استقبال اقيم فى احد فنادق القاهرة . وبالطبع وقف خروشوف والقى خطبة . وبلا مناسبة فوجىء الحاضرون بالضيف السوفيتى يتطاول على دولة الكويت ، ويسخر من سياستها ، وبهين حكامها!

وكان جروميكو ـ وزير الخارجية السوفيتية ـ حاضرا فحاول بكل ما فى وسعه ـ باشارات يديه ـ أن ينبه خروشوف الى الخطأ الذى وقع فيه بشتم الكويت

ولكن خروشوف لم يتوقف . ولم يفهم اشارات جروميكو . أو لعله فهمها ، ولكنه لم يوافقه عليها!

وتصادف اننى لم احضر هذا الحفل . ولم استمع الى خروشوف وهو يهاجم الكويت . ولكننى علمت بتفاصيل الخطاب من بعض الحاضرين . فاستغربت من سلوك خروشوف . ولم أجد مبررا واحدا يشفع له هجومه على الكويت وحكامها . فالمعروف ان الكويت لم تتخذ موقفا معاديا للاتحاد السوفيتى . ولم تهاجمه صحافتها ، واجهزة اعلامها . وبالتالى فما الداعى الى هذا التهجم العنيف ؟!

ووصل الخبر الى الكويت ..

وعلى الفور أمسك الشيخ جابر ـ حاكم الكويت الآن وكان وقتها وليا للعهد ـ بقلمه وكتب لى خطابا يسألنى فيه عن حقيقة ماقاله خروشوف عن بلاده . ويبدو بالرد على رسالة الشيخ جابر . فالرجل كان من اقرب اصدقائى العرب . وكنا نتبادل الرسائل ، وكثيرا ما نلتقى فى مناسبات عديدة .

قلت للشيخ جابر حقيقة ما حدث بالضبط ، وطبقا لما سمعته ، وتحققت منه . وقلت له نص ما قاله جروميكو لخروشوف امامنا بعد الحفل الذى لم

عدم التسوف عن مهاجمة الكويت ، على الرغم من اشارات يديه التى لاحظها ، وفهمها ، الجميع . فرد خروشوف قائلا : « لم الحظ انصرافك . ولم افهم ماذا كنت تريد ان تقول لى بها! »

كل هذا كتبته للشيخ جابر ..

أتذكر هذا الآن ، وأتذكر أيضا موقف الاصدقاء العرب معنا هذه الأيام ، فأشعر بالألم ، والأسف ، العميقين . انهم يهاجمون مصر الآن . وحدث بعد مؤتمر بغداد الاخير ان جاء احد الصحفيين العرب امامه الى ما بعد منتصف الليل ، ثم ينهى السهرة ليعيدها فى مساء اليوم التالى .. وهكذا .

الشىء الوحيد الذى كان يتغير فى تلك السهرات ، هو وجوه الحاضرين . ففى كل ليلة كان الحاضرون يغادرون باختفاء واحد أو اثنين منهم ! وكان ستالين يحضر غيرهما من اعوان الصف الثانى الذين قرر ان يقذر بهم الى الصف الاول . ولم يكن يجرؤ احد الحاضرين ـ كما قال لنا خروشوف ـ أن يسأل عن سبب اختفاء زملاء سهرة الامس ! فسبب الاختفاء معروف ، وهو غضب ستالين على المختفين . أما سبب الغضب فلا يعرفه احد !

ويصف خروشوف هذه الايام ، فيقول لنا :

ـ « كنت اودع زوجتى فى مساء كل ليلة ، وقبل مغادرتى منزلى فى طريقى الى سهرة الفودكا ، والرقص ، فى منزل ستالين . كنت اودعها كما لو كنت فى طريقى الى غرفة الاعدام ! وما كنت افعله ، كان غيرى يفعله هو ايضا فى بيته ! فلم نكن نعرف من هو الذى سيأتى عليه الدور ليغضب عليه ستالين ، ويأمر بالقبض عليه ، وارساله الى معسكرات العمل فى سيبيريا ! »

والمعروف ان بيريا كان هو الذى ينفذ قرارات ستالين الارهابية . فهو المسئول عن اجهزة الامن ، وهو الذى فى استطاعته القبض على اى مواطن ، وتعذيبه ، وابعاده تحت جليد سيبيريا !

الوحيد الذى استطاع ان يبقى بجانب ستالين فترة اطول من غيره ، ولم ينف الى سيبيريا كان كوسيجين ! وكثيرا ما كان خروشوف ، يتريق ، على كوسيجين فيتعمد ان يسأله امام الحاضرين ـ بما فيهم من ضيوف اجانب ـ عن السر وراء عدم غضب ستالين عليه رغم الـ ١٣ سنة التى امضاها بجانبه !

وكان خروشوف يعلق على ذلك بقوله :

ـ « كيف بقى كوسيجين ١٣ سنة بجانب ستالين ، فى حين ان غيره لم يستطع ان يبقى ١٣ شهرا فقط ! » .

والدين انه « امريكانى! » . وكانت هذه المعلومات لدى خروشوف عن زكريا ، كافية جدا كى يكرهه ، وبطالبنا بعقد اجتماع لمجلس الثورة ، نقوم خلاله ونطبق على رقبة زكريا ونخلص من « وبرتاح الشيوعيون المصريون!

نعود الى عملية « الكونترول » ، فأقول ان مراكز القوى التى تخلصنا منها فى مايو ١٩٧١ كانت حريصة كل الحرص على تطبيق هذا النظام بكل دقة . وكانت تلك المراكز تقول علنا انها ، ماسكة زلة على كل واحد فى مصر! . وكان المقصود من هذا بالطبع هو الا يرفع أحد رأسه ، والا فضحوه ، وشهروا به! ولهذا السبب كان عدل هو الغاء هذا الأسلوب على الفور ، بمجرد القضاء على مراكز القوى . وكان البعض يرى ان تشكل لجنة لسماع الشرائط ، التى سجلت فوقها مراكز القوى اسرار المواطنين ، فربما عثرنا على وقائع تفيد الأمن القومى . ولكننى رفضت هذا الاقتراح ، وامرت بحرق جميع الأشرطة ، بكل ما فيها من اسرار ، وفضائح ، لا تعد ولا تحصى!

واعود الى خروشوف ، فأقول ان الحقد كان يأكل قلبه . والذى يكون هذا حاله فنصيحتى لكم الا تضعوا وقتكم معه . ويجب الابتعاد عنه ، وتركه يصارع الحقد ، ويصرعه الحقد!

وحكايات حقد خروشوف كثيرة جدا . ويكفى أن احكى عن حكايته معى أنا شخصيا ، والتى بدأت عندما راست وفدا برلمانيا وذهبت به الى موسكو فى سنة ١٩٦٠ . وجلست مع خروشوف ، فقد كانت قواتنا المسلحة فى حاجة الى سلاح . وكان لابد من اقناع خروشوف أولا ، حتى يمكننا الحصول على احتياجاتنا من السلاح السوفيتى . وأثناء المباحثات ، فوجئنا بخروشوف يتحدث عن الشيوعية ، وعن انجازاتها ، وعن حتميتها وانتصارها! ثم انتقل للحديث عن الاشتراكية ، واستخدم أسلوب العلم والداعية الكبير فى شرح نظمها ، واهدافها ، وابعادها ، ورددت عليه ، وقلت له ان فى مصر اشتراكية . فثار ، وغضب ، وقال :

ـ « ان اشتراكيتكم عبارة عن الفول المدمس . اما اشتراكيتنا فهى الشيش كباب! وشوفوا بقى الفرق الكبير بين الشيش كباب والفول المدمس! »

ولم يكتف خروشوف بهذا ، وانما تطاول علينا ، وعلى نظامنا كله .

ووصل الخبر فى نفس اليوم الى عبد الناصر فى القاهرة . وكان عبد الناصر ينتظر منى أن ارد على التطاول بأقسى منه . ولكننى لم ارد . فمهما قلت فانا لا أستطيع ان اتغلب على سلاطة لسان خروشوف ، ولم أسلم من بذاءة الفاظه!

واكتفيت بالرد المهذب ، والمحدد ، والذى يضع الامور فى نصابها .

وانتهت المباحثات ، وتمت الزيارة ، وعدنا الى القاهرة بعد نجاحنا فى الحصول على ماطلبناه من الاسلحة . وذهبت الى جمال عبد الناصر ، وعرضت عليه نتائج الزيارة . ففوجئت به يقول لى انه كان ينتظر منى أن ارد بعنف على بذاءة خروشوف . فقلت له انني رددت عليه بما اعتقد انه يكفى . وعلى كل حال فان كل انسان يتصرف بما تمليه عليه أخلاقه .

ولم يقتنع عبد الناصر ..

واعددنا ردا عنيفا ، نشر فى صحيفة « الاهرام » على الفور تلقفته اذاعة « أوربا رقم ١ » ـ وهى اذاعة موجهة ضد السوفيت ـ واخذت تذيع الرد ليل نهار ، بهدف الاساءة الى خروشوف

ومن هنا اعتقد ان خروشوف لم يكن يرتاح لى : بل لا اغالى اذا قلت انه كان يكرهنى . فما اكثر المناسبات التى جمعتنا معه بعد ذلك ، ودار فيها حديث بسيط . بعيدا عن الرسميات ، اشترك فيها خروشوف وعبد الناصر وعبد الحكيم . ولم يحاول خروشوف ان ينسى ما كان بيننا . ولم يتجاهل خلافات القديم . وظل حتى آخر لقاء لى معه ، كما هو عليه من تباعد ، وغضب ، وحقد!

أنور السادات

ومن المؤكد ان اصرار خروشوف على التريقة على كوسيجين بهذه الحكاية ، كان من اهم اسباب غضب كوسيجين على خروشوف ، وموافقته على التخطيط لابعاده عن الحكم ، فيما بعد .

ولم يكن كوسيجين وحده هدف تهكمات خروشوف ، وتريقته ، والسخرية منه . فقد تعرض زميله ميكويان ، لتشنيعات قاسية اطلقها خروشوف عليه ، وكان يسعده ان يرددها باستمرار . وقد حكى لنا خروشوف هذه التشنيعة بنفسه ، فقال ان ميكويان يذكره دائما بقصة سيدنا يوسف وزليخة ، عندما همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه .

ويتندر خروشوف على ميكويان فيقول ان ميكويان واجه نفس الموقف الذى واجهه سيدنا يوسف . واذا كان يوسف قد رأى برهان ربه فاعاده الى رشده ، فان « شيخوخة » ميكويان هى وحدها التى اجبرته على التراجع .

وهكذا كان خروشوف . سليط اللسان . ولا يسلم منه دين ، أو عقيدة ، أو قيم !

ولكنه ـ والحق يقال ـ حاول أن يضع نظاما يتيح انتقال السلطة فى بلاده بأسلوب حضارى ، مثلما يحدث فى المجتمعات الناضجة . بحيث لا يقفز على السلطة الا من يختاره النظام الدستورى ، وبحيث ايضا لا ينتزعها القوى ، والمتآمر على غيره ، كما حدث ويحدث فى الاتحاد السوفيتى حتى يومنا هذا .

فالنظام السوفيتى المعروف لنا منذ بدايته ، والى اليوم ، يأخذ بمنطق شريعة الغاب : فالقوى يلتهم الضعيف . ورئيس الحكومة يختار اعوانه ، فيطيعونه الى ان يتمكنوا منه ثم يطيحون به ويتولى الحكم خلفا له . الاقوى ، والاكثر تآمرا ، وتحرك!

وانتقال السلطة فى الاتحاد السوفيتى يتم عادة بنفس الاسلوب الذى لايتغير . فهو يعتمد اولا على السيطرة على الحزب ، ومحاصرة القيادة التى قرروا التخلص منها . والطريق الوحيد لتحقيق هذا هو اثارة الرأى العام على النظام الحاكم ، بواسطة مراكز التهييج المنتشرة فى كل مكان فى الاتحاد السوفيتى ، وتنطلق تلك المراكز لتنتشر بين الناس وتثيرهم ضد قادتهم ، توطئة للاطاحة بهم بسهولة بعد ذلك .

ومراكز التهييج تلك تضم كفاءات ، وخبراء ، واساتذة فى هذا الفن . ومعظم الذين نعموا فى اعلى مناصب الدولة . كان نشاطهم فى مراكز التهييج « الواسطة » التى اوصلتهم الى مناصبهم المرموقة .

فمثلا السفير فينوجرادوف ـ الذى مات هنا فى القاهرة ـ كان من اسفراء الاتحاد السوفيتى . وشغل منصب سفير بلاده فى باريس لمدة ١٢ سنة متصلة . وكان صديقا ، ومقربا ، من الجنرال الراحل ديجول . وعندما جاء ليعمل فى القاهرة ، تصادقنا بسرعة ، وكان يجمعنا خط تليفون مشترك بيننى وبينه ، طوال السنوات التى عمل فيها بيننا . وبشهادة الجميع كان هذا الرجل من افضل واحسن الدبلوماسيين السوفييت . واعترف لى بنفسه بأنه كان من قادة مراكز التهييج الشعبى فى الاتحاد السوفيتى . وقد امضت بكفاءة فى هذا المجال ، عندما شهدته يخطب ذات يوم فى مؤتمر شعبى بالقاهرة

توليهما السلطة فى الكويت والسعودية ، هو اهانة مصر ومحاولة عزلها » ! .

ونعود الى الموضوع الاصلى ، الخاص بخروشوف ..

فعلى الرغم من كل ما قيل ، وما يمكن ان يقال عن خروشوف فانه هناك حقيقة يجب ان نعترف بها وهى ان الرجل حاول ان يحول نظام انتقال السلطة فى الاتحاد السوفيتى ، الى نظام ناضج ، بدلا من النظام الغريب الذى تميزت به بلاده ، وانفردت به !

فعندما وقف خروشوف ، وفند اسلوب ستالين فى الحكم ، لم يكن هدفه فقط هو كشف اخطاء هذا الاسلوب ، وانما حاول ان يغير هذا الاسلوب بحيث لا يتكرر مرة اخرى ، ويعانى الشعب السوفيتى ما عاناه ، ويعانيه ، من اهوال وامتهان لحريته .

وانتذكر انه جمعتنا جلسة مغلقة ، خروشوف ، وعبدالناصر ، وعبدالحكيم عامر ، وانا ، واخذ خروشوف يحدثنا كيف كان ستالين يحرص على ان يجمع اعوانه ـ كل ليلة ـ فى بيته ، ويسقيهم شراب الفودكا ، حتى يفقدهم وعيهم ، ثم يأمرهم بالرقص امامه الى ما بعد منتصف الليل ، ثم ينهى السهرة ليعيدها فى مساء اليوم التالى .. وهكذا .

الشىء الوحيد الذى كان يتغير فى تلك السهرات ، هو وجوه الحاضرين . ففى كل ليلة كان الحاضرون يغادرون باختفاء واحد أو اثنين منهم ! وكان ستالين يحضر غيرهما من اعوان الصف الثانى الذين قرر ان يقذر بهم الى الصف الاول . ولم يكن يجرؤ احد الحاضرين ـ كما قال لنا خروشوف ـ أن يسأل عن سبب اختفاء زملاء سهرة الامس ! فسبب الاختفاء معروف ، وهو غضب ستالين على المختفين . أما سبب الغضب فلا يعرفه احد !

ويصف خروشوف هذه الايام ، فيقول لنا :

ـ « كنت اودع زوجتى فى مساء كل ليلة ، وقبل مغادرتى منزلى فى طريقى الى سهرة الفودكا ، والرقص ، فى منزل ستالين . كنت اودعها كما لو كنت فى طريقى الى غرفة الاعدام ! وما كنت افعله ، كان غيرى يفعله هو ايضا فى بيته ! فلم نكن نعرف من هو الذى سيأتى عليه الدور ليغضب عليه ستالين ، ويأمر بالقبض عليه ، وارساله الى معسكرات العمل فى سيبيريا ! »

والمعروف ان بيريا كان هو الذى ينفذ قرارات ستالين الارهابية . فهو المسئول عن اجهزة الامن ، وهو الذى فى استطاعته القبض على اى مواطن ، وتعذيبه ، وابعاده تحت جليد سيبيريا !

الوحيد الذى استطاع ان يبقى بجانب ستالين فترة اطول من غيره ، ولم ينف الى سيبيريا كان كوسيجين ! وكثيرا ما كان خروشوف ، يتريق ، على كوسيجين فيتعمد ان يسأله امام الحاضرين ـ بما فيهم من ضيوف اجانب ـ عن السر وراء عدم غضب ستالين عليه رغم الـ ١٣ سنة التى امضاها بجانبه !

وكان خروشوف يعلق على ذلك بقوله :

ـ « كيف بقى كوسيجين ١٣ سنة بجانب ستالين ، فى حين ان غيره لم يستطع ان يبقى ١٣ شهرا فقط ! » .